التـــعاقـــب

للدكتور محمد نايل أحمد

هذا بحث موجز متواضع، أرجو أن يثير اهتمامنا إلى ما ترك أسلافنا، وما سجلوه من بحوث تهدف إلى إثراء هذه اللغة بتكثير ألفاظها ، لتستجيب لنمو الحضارات فى كل عصر ، ولتظل حية متجددة ، غنية عن كل أجنبى ودخيل .

لقد بحث أسلافنا وسجلوا ، وفتحوا الأبواب ، ووطأوها لمن يجئ بعدهم ، ليسير سيرهم ، فيجدد ويزيد ويثرى ، فجزاهم الله عنا خير الجزاء .

وهذا البحث لم يأت بجديد ، وإنما ينقل ما قالوا وماعملوا ، وأنا أعرضه لنتدارس مافيه ، عسى أن نجد فيه ما نستدرك به بعض ما فات ، ونتخذ منه العدة لما هو آت .

وأنتم خير من يعرف وسائل التنمية والتكثير فى هذه اللغة ، مما كان لهذا المجمع الموقر جهد فيه مشكور ، ونشاط بَيِّن ومذكور ، من الاشتقاق والنحت ، ومن التوسع فى صيغ الأفعال والأسماء ، ولكن لا يزال الباب مفتوحا للمزيد ، فإن مجال الاشتقاق والنحت واسع المدى ، وإن الصيغ والأوزان فى الأفعال والأسماء كثيرة لا يكاد يبلغها الحصر ، وكلها قابلة لابتكار الأسماء لكل ما نحتاجه من مصطلحات ...

وإلى جانب هذه الأبواب التى طرقتموها ، أبواب أخر ، يوشك النسيان أن يطويها من ذلك باب " النقل " وباب "الارتجال " ، مما سجله ابن مالك فى باب " العلم " بقوله :

ومنه منقول كفضل وأسد
ونو ارتجال كسعاد وأدد

ولباب النقل رصيد ضخم ، يمكن استغلاله ، من تلك الكلمات القاموسية ، التى سجلت ولم تجد من يستعملها إلى الآن ، وهى شئ لا يكاد يحصى .

ولباب الارتجال مجال آخر لا حدود

له ، يلبى الحاجة لكل من يريد ... وأنا أرجو ، وألح فى الرجاء ، أن نشترك جميعا فى دراسة جادة لهذه الموارد عسى أن نفيد منها ما وسعنا الجهد ، فإن لغتنا الآن لا تحتاج إلا لهذه الأسماء منقولة أو مرتجلة ، لسد حاجتنا من تلك المصطلحات ، وإن إهمال هذه الموارد شئ غير مفهوم بل هو تقصير غير معقول .

على أنه من حقنا فى باب النقل أن نتصرف فى المنقول ، اقتداء بما سنته اللغة من قديم ، حين زادت فى الكلمة ونقصت ، وقدمت من حروفها وأخرت فزادت حين قالت : لحيانى ورقبانى ، ونقصت فى أب وأخ وعدة وزنة ، وقالوا جذب وجبذ ، وركب وبرك .. هذا حقنا ، وقد أباحته لنا اللغة . التماسا للنمو والثراء والتماسا للخفة على اللسان .

فإذا أضفنا إلى كل مامضى لونا آخر من تصرفهم فى التغيير والتحوير ، وهو "التعاقب" الذى عقدنا له هذا البحث، أدركنا مدى الاتساع فيما ابتكرته هذه اللغة من روافد تمدها بوسائل الحياة والتجدد والنماء .

والتعاقب هو تغيير حرف بحرف ، أيا كان الحرفان ، وأيا كان موقعهما من الكلمة ، يستوى أن يتقارب الحرفان المتعاقبان فى المخرج وأن يتباعدا ، وأن يكونا فى أول الكلمة أو آخرها أو وسطها، وهو بهذا القدر من السعة يعد أعظم الروافد فى اللغة ، وأغزرها مادة ، إذ لا يعوقه شرط ولا يعانى من قيد .

قالوا : امتقع لونه وانتقع ، فعاقبوا بين الميم والنون .

وقالوا : مدّ الصوت ومطّه ، والحزم والحزن ، وموت زؤام وزؤاف وزعاف .

وقالوا : تحوّف وتخوف ، بمعنى تنقّص . وقالوا تجسس وتحسس ، كما قالوا ذرأ وزرأ وزرع ، ومرّ يَرْتَجّ ويَرْتَكّ. وقالوا فى الرجل الداهية : هو صِل أصلال وضِل أضلال : أى تدبيره قاتل كالصِّل (الحية التى تقتل فورا) أو تدبير مُلبس مضلل وقالوا : قعوس الرجل إذا كبر وشاخ ، وقوعس إذا قوى واشتد

وهكذا ...

والتعاقب قد جاء فى جميع حروف[1] الهجاء ، وبحرية واسعة ، بينما الإبدال جاء فى اثنى عشر حرفا فقط ، وجاء محكوما بقياس وقانون محدد لا يخرج عنه .

ولست بحاجة إلى كثرة الأمثلة والشواهد لهذا التعاقب ، فإن الجزء الثانى من كتاب الأمالى لأبى على القالى (٢٨٨ - ٣٥٦هـ) قد جاء فيه من الأمثلة والشواهد ما لا نزيد عليه ، وكأن أبا على قد عقد الجزء كله للتعاقب كما سترى من الفهرس الملحق ، بهذه الكلمات ...

والقالى هو - فى حدود اطلاعنا - أول من بحث هذا التعاقب وألف فيه وتابع صوره وشواهده ، ثم جاء بعده ابن جنى (٣٢٢-٣٩٢هـ) فخصه بكتاب مستقل ، أشار إليه وأحال عليه فى الخصائص (جـ١ ص٢٦٤) .

ولكنه لم يصلنا ، ونأمل أن نحصل عليه فى إحدى المكتبات إن شاء الله ، وقد نقل السيوطى فى الأشباه والنظائر من كتاب ابن جنى فى الفرق بين تاء العوض وتاء التأنيث (ورد فى هامش الأمالى جـ ١ ص ٢٦٥) وفى هذا النص ما يشير إلى أن الكتاب ظل موجوداً إلى أيام السيوطى وأن ابن جنى درس " التعاقب " دراسة علمية عنيت بتحقيق مسائله وتوضيح الفروق بين ما يعرض له من قضايا وصور ، قد يشتبه بعضها . وتختلط مفاهيمها ، وهذا هو العهد بابن جنى ودقته فيما ترك من مؤلفات .

أما صاحب الأمالى فإنه نهج نهجا أدبيا ، يقوم على تسجيل ماوعى من النصوص التى جاء بها التعاقب ، لا يزيد، وقد ختم حديثه عن هذا البحث بقوله: (واللغويون يذهبون إلى أن جميع ما أمليناه إبدال وليس هو كذلك عند علماء النحو ، وإنما حروف الإبدال عندهم اثنا عشر حرفا) هذا هو كل ما عرض له مما يمكن أن نعده فى باب التحديد العلمى ، ثم يعقب هذه الفقرة

---

(١) قال أبو حيان فى شرح التسهيل : قلما نجد حرفاً لم يأت فيه البدل (يريد التعاقب) ولو نادراً (المزهر حـ ١ ص ٤٦٣) .

بعنوان لموضوع البدل العرفى وحروفه ، لم يتجاوز فيه صفحة [1] واحدة بينما تناول التعاقب فى مائة وخمسين صفحة ، وهذا يدل على اهتمامه الكبير بموضوع التعاقب من الوجهة اللغوية لا غير .

وبمقارنة محدودة لمنهجه فى كلٍ من التعاقب والإبدال ندرك مبلغ حرصه الشديد على الاستيعاب الواسع للأول دونْ الثانى .

فلنأخذ نموذجا لحرف واحد لنرى الفرق ، وليكن حرف " الطاء " مثلا " قال عن الطاء فى البدل « فالطاء تأتى بدلا من التاء فى افتعل ، إذا وقعت هذه التاء بعد الضاد فى اضطهد ، والصاد فى اصطبر ، والظاء فى اظطلم » ولم يزد عن ذلك ، بينما قال عن هذا الحرف فى التعاقب (جـ٢ ص١٥٥) :

(تأتى الطاء مكان الصاد قى قولهم : أملصت الناقة وأملطت ، إذا ألقت وليدها بدون شعر ... ثم تأتى مكان الدال فى قولهم مطّ الحرف ومدّه ، وتأتى مكان التاء فى قولهم رجل طبن وتبن بمعنى حاذق فطن ، وطعن خصمه فقطّره وقتّره).

فالتعاقب شئ آخر غير الإبدال النحوى وغير الإعلال والعوض ، وهو لون آخر غير هذه التصرفات النحوية .

والعمدة فيه السماع ، كما يبدو من منهج القالى ، ولكنه على أية حال نوع من تصرف العرب فى لغتهم ، يضعون حرفا مكان حرف ليعبروا عن معنى جديد للكلمة ، تحديدا لدقة الصورة في دلالة الكلمات ، فيقولون (قبضة) للتناول بمجموع الكف ، و(قبضة) للتناول ببعض الأصابع ، ويقولون : اللثام لما يغطى الفم فقط واللفام بالفاء لما يغطي أرنبة الأنف ، يقولون قطع للقطع الشديد، وقطف للقطع اللين ، وهكذا مما عرف بعضه فى باب الا شتقاق .

وقد يظن أن أكثر ما جاء فى الكلمات التى أوردها القالى ، إنما هو من باب الترادف وهو ظن مرفوض ، لأن

---

(١) راجع صفحتى ١٨٦ ، ١٨٧ من الجزء الثانى من الأمالى .

العرب تعرف أن لكل حرف مذاقا خاصا يرتبط بالمعانى التى تريدها ، ومالجأ المتقدمون إلى فكرة الترادف إلاّ حين أعجلهم الوقت وآثروا السرعة فى تسجيل مفردات اللغة خشية أن تضيع بانقراض أصحابها ، الذين يوثق بسلامة فطرتهم ، فلم يدققوا في إبراز الفوارق بين الكلمات التي تتقارب معانيها ، ولكن المتأخرين حاولوا التفريق فيما وقع لهم من كلمات مروا بها فى مناسباتها . فقد ذكر الزمخشري في قوله تعالي (أو يأخذهم على تخوف ٤٧ النحل) أن التخوف استشعار الخوف من عذاب وقع لقوم قبلهم ، ثم قال : وقيل التخوف والتخون : التنقص ، وقال القائل (جـ٢ ص١١٢) : هو يتخوف مالي ويتحوفه بمعنى يتنقصه. ثم أوردوا الشواهد من الشعر ، ولكنهم أشاروا إلى أن التحوف بالحاء المهملة هو التنقص من حافاتها وأطرافها ، وأن التخوف بالخاء فيه استشعار الخوف كما أن التخون نقص جاء عن طريق الخيانة ، فهذا تعاقب بين الحاء والخاء فى أول الكلمة ، وبين الفاء والنون فى آخرها وقد مر بنا اللثام واللفام ، والقطع والقطف والقطم ، والقصم والفصم ، والقبضة والقبصة وإن شيئاً من إرهاف الحس ومن التذوق الواعي ، ليبرز الفروق بين الكلمات التى ظنوها مترادفة ما لم يكن اختلاف الحرف ناشئا عن لهجة وأخرى ، كقول بعضهم : عَلِجّ فى علىّ ، و(يامعين ياريّال) فى لهجة بعض النجديين اليوم ، يريدون (جامعين يا رجّال فى صلاتنا)، وذلك حين سئلوا : لم صليتم فى جماعة أخرى عقب صلاتكم الظهر فمثل هذه اللهجات هى التى يتفق فيها المعنى مع اختلاف الحروف .

ولا أكادأجد حرجا أى حرج فى أن ننهج نهجهم فنعاقب ما عاقبوا ، ونغير كما غيروا فنزيد وننقص ، ونضع حرفا مكان حرف ، لنضع أسماء للمصطلحات التى تفد إلينا .

وإن الذين أباحوا لنا أن ننقل الكلمة كاملة لنجعلها اسما وعلما على شئ آخر، ثم أباحوا لنا أن نرتجل كلمة لم تعرفها

اللغة من قبلَ ، لا يمكن أن يمنعونا من التصرف فى حرف واحد فى الكلمة ، هذا شئ غير وارد ، إلا عند الذين يريدون أن يجمدوا هذه اللغة ويلحقوا بها منقصة القصور والفقر ، ليسمحوا للكلمات الأجنبية أن تطغى عليها وتغرقها فى سيل لا نهاية له ....

وأرجو أن تسمحوا لى أن أطرح هذا السؤال : ماذا يصنع أصحاب اللغات الأجنبية حين يفاجئهم المخترعون والمستكشفون بالجديد كل يوم فى الصناعات وعلوم الطب والأمراض والأدوية والكيماويات كافة ....؟

أيبحثون عن كلمات لهذا الجديد فى اللغة التركية أو اليابانية مثلا ...؟ أم إنهم يديرون كلماتهم هم على أوجه من التغيير بالحرف أو بالمقطع أو بالحركة ؟ أكاد أقطع – لاعن علم – بل عن بدهية مركوزة فى طباع البشر ، أنهم يبتكرون الكلمات من لغاتهم ببعض التغيير ليسدّوا حاجتهم إلى ما يجد فى حياتهم من وسائل الحضارة والتقدم فى العلوم والصناعات .

ولقد لجأ رجال الطب قديما وحديثا إلى هذا التعاقب ، ويحضرنى منه الآن بعض الكلمات ، ولو اتسع لى الوقت لوقفت على الكثير منه ، قالوا فى القديم نضوخ ونضوخ ، معاقبين بين الحاء الخاء ، وقالوا فى الحديث أندوسيد وأنتوسيد ، بالتعاقب بين التاء والدال مع تغيير فى بعض الحركات .

وحين تعددت آخيرا أنواع الرادار بتعدد المهام التى يقوم بها كل نوع قالوا: الرادار والليدار واللادار واللويدار والأويدار [1] . ونحن نستطيع أن نقول : الكاشف والكشاف والكاشوف والكويشف والمكشف والمكشاف والكشّافة ، وأكثر من ذلك إن شئنا وعزمنا .

ولا ضير أن يكون للكلمة أكثر من معنى ، فإن القرائن تعين المعنى المراد

---

(١) ص ٢٨ من البحث القيم الذى قدمه الزميل الفاضل **الأستاذ أحمد شفيق الخطيب فى مؤتمر العام** الماضى بعنوان (ألفاظ الحضارة بين العامى والفصيح) .

فكلمة (عين) تطلق من قديم على عدة معان :الباصرة والجاسوس والمعدن وغيرها مع وجود ألفاظ أخرى لكل معنى من هذه المعاني ، ولكن المتكلم يدع كلمة الجاسوس إلي " العين " لأغراض يريدها كالتعمية والألغاز وغيرها معتمدا على فطنة القارئ أو السامع ..

بل إن القرآن الكريم ، وهو ميزان اللغة وشاهدها ، قد جاء بكلمات كثيرة ، عاقب فيها بين الحرف والحرف ، فحين صور انشقاق البحر لموسى عليه وعلى نبينا السلام قال : (فانفلق فكان كل فرْق كالطود العظيم) الشعراء ٦٣) فقال (انفلق) عندما كان الماء ينفصل شيئا فشيئا وعندما تم الانفصال وتماسك الماء فكان كالطود ، قال (فِرْق) ، فصور المعنين بحرفين ، حين عاقب بين اللام والراء ، وبين اللام وصلابة الراء .

وعند هذه الآية قال ابن فارس (من سنن العرب ابدال الحروف وإقامة بعضها مقام بعض فتقول مدحه ومدهه وفبن ورفل وهو كثير مشهور ، عندهم وقد ألف فيه العلماء فأما قوله تعالى (فانفلق فكان كل فرق ..) فاللام والراء فيه متعاقبان .. (المزهر جـ١ص٢٧٢) .

وحين يصور عذاب الكافرين يقول : (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) (الجن ١٥) وحين يصور عذاب المشركين يقول : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم .. الأنبياء ٩٨) الطاء تلائم هشاشة الشجر فى حطب جهنم ، لخفة عذاب الكفار ، والصاد تلائم الشدة الكبرى فى عذاب المشركين .

وحين يتحدث القرآن عن الكفار والفجار يقول (إن كتاب الفجار لفى سجين – المطففون ٧) ويقول عن الكفار المغيرين على الكعبة فى سورة الفيل (ترميهم بحجارة من سجيل) إذ أن خطر الفاجر أشد من خطر الكافر فهذا خطره على نفسه ، وذاك خطره على مجتمعه كله فكانت النون برنينها أنسب لهؤلاء الفجار ، كما كانت اللام أنسب للكفار .

وكذلك ندرك الفرق بين التحسس والتجسس ، حين نتذوق ما بين الحاء

والجسيم من ... وقد يطول المقام إذا أردنا أن نتتبع ما جاء في القرآن من تعاقب ، وحسبنا ما ذكرنا من نماذج من هذا الكتاب الكريم ومن كلام العرب لتطمئن إلى أن التعاقب فن معروف ومطروق ، سلكه العرب من قديم لتنمية لغتهم وتطويعها لحاجتهم في التعبير والتصوير ..

ثم أيهما أقرب إلى طبيعة اللغة ، وأكثر حفاظا على شخصيتها . أن أعمد إلى كلمة منها فأغير حرفا بحرف ، لأطلقها على مصطلح علمي ، وأضعها إلى جوار المصطلح الأجنبي جنبا إلى جنب ، وأترك للزمن شيوعها ، أم أن أكتفي بالكلمة الأجنبية وحدها ، وهي الغريبة عنها ، تنكر جلدها ، وترفض دمها .. !!

ثم أعود فأكرر ، منعا للبس ، إن اجتهادنا التجديدي إنما ينحصر في الأسماء والأعلام : لا في الأفعال والصفات ، فالمعاني والأحداث ، والألفاظ المعبرة عنها في صون وحصن مكين ، لأنها حق للعرب من أصحاب اللغة وحدهم ... أما الأسماء فنحن وهم فيها شركاء ، نبتكر أو نغير أو ننقل كما فعلوا لنجعله علما على ما نشاء من أي جديد فما الأسماء إلا رموز للدلالة على مسمياتها لا غير ، فالاجتهاد فيها لا يمس جوهر اللغة في شئ .

هذه واحدة ألح على تكرارها وأما الثانية فإننا لا نرفض أي مصطلح أجنبي، وكل همنا أن نجعل معه لفظا عربيا قد نألفه ونكتفي به يوما ..

فإذا كان هذا المصطلح الأجنبي اسما لصاحب الاختراع أو المكتشف أفردناه وحده ولم نزاحمه بكلمة أخرى حفظا لحقه واعترافا بفضله ...

ولقد شاعت بيننا كلمات لآلات لم نخترعها ، فاشتققنا لها أسماء أخذناها من طبيعة مهمتها ، كالغسالة والخلاط والثلاجة وغيرها ، ولم نحرص على أسمائها عند مخترعيها ولقد أوشكت كلمة " هاتف " أن تشيع بدلا من تليفون لولا التراخي والاسترخاء الذي أصاب هذه الأمة ، فأفقدها الحماس للغتها وشخصيتها .

إن حربا .خفية شرسة تخطط لزحزحة هذه الأمة عن كل ما يتصل بشخصيتها وقوميتها وكيانها ، وإلا فكيف أفسر هذه الغارة التي تشنها على اللغة والأخلاق وسائل الأعلام المرئية والمسموعة صباح مساء .

ففي أسماء الأفلام والمسرحيات (الواد سيد الشفال) فلماذا (الواد) دون (الولد)..؟ ولماذا (نص أنا نص إنتي) (أخويا هايص وأنا لا يص) (بم بثيبكا بم) ، بعد أن كانت في الماضي (الوردة البيضاء) (سلامة القس) (مجنون ليلى) هي مؤامرة وحرب ، ولكن قومي لا يستيقظون !!

إن كان مجمعنا لا يملك سلطة يرد بها هذه الغارة على اللغة ، فإنه يملك ما يترجم من مصطلحات ، يملك أن يلتقط من ألفاظ اللغة ما يصلح أن يطلق على المصطلح ، ويملك أن يغير من صورة الكلمة فيزيد وينقص، ويضع حرفا مكان حرف ، وأن ينقل من الثروة الضخمة التي سجلتها المعاجم ولم تستعمل ، بل ينقل من المستعمل طبقا لمبدأ (النقل) .. إنه يملك كل هذا وأكثر منه ، والعبرة بالعزم الجاد ، والحماس الفعال ، ولقد فعل المجمع كثيرا وما يزال يفعل والمطلوب مضاعفة الجهد والإصرار على العزم ، لا قتحام الأبواب التي ذكرناها والتي فتحها لنا أسلافنا من قبل . وأن يقدم لهذه اللغة يدا في هذا المجال سيذكرها له التاريخ .

وأحسب أنني لست بحاجة إلى مزيد من البسط لموضوع " التعاقب " بعد الذي ذكرت من نماذجه ، وبعد أن طفت بقضايا تتصل به وتشاركه في التنمية والإثراء ، وليت الأيام تسعفنا بالحصول على كتاب ابن جني ، لنرى كيف تناوله ، مما قد يضيف جديدا إلى ماصنع القالي في أماليه .

وملحق بهذا قائمة مفصلة للمواضع التي عرض فيها القالي لهذا البحث لتيسير الرجوع إليها .

محمد نايل أحمد

عضو المجمع

المـــراجـــع :

الأمالى للقالى جـ٢ .

الخصائص لابن جنى .

المزهر للسيوطى .

شـرح ابن يعـيش على المفـصل الجـزء العاشر ص٧ وما بعدها .

شـرح الشـافـيـة الجـزء الثـالث – بـاب الإبدال .

كـتب اللغـة : القـامـوس واللسـان (اللسـان فى مـادة نجا فـى بيتى عبد الرحمن ابن حسان) .

تفـسـيـر الكشـاف جـ٣ ص٢٩٦ فى التناوش والتناول .

النهـاية لابن الأثيـر جـ٣ ص٨٢ فى الضر والضير .

كتاب سيبويه جـ٢ ص٣٨ فى زنادقة وزناديق .

فهرس التعاقب

بالجزء الثانى من الأمالى

تعاقب	الصاد والضاد	٢٢	التعاقب	الثاء والذال	١١٩
"	الفاء والثاء	٣٤	"	السين والشين	١٢٥
"	واللام والنون	٤١	"	فى حروف لعل	١٣٤
"	الميم والياء	٥٢	"	العين والغين	١٣٤
"	العين والحاء	٦٧	"	القاف والكاف	١٣٩
"	الهمزة والهاء	٦٨	"	اللام والراء	١٤٥
"	السين والتاء	٦٨	"	الصاد والطاء	١٥٥
"	الياء والجيم	٧٧	"	الهاء والخاء	١٥٥
"	الحاء والجيم	٧٨	"	الدال والطاء	١٥٥
"	الهمزه والعين	٧٨	"	التاء الطاء	١٥٦
"	النون والميم	٨٩	"	الدال واللام	١٥٦
"	الهاء والحاء	٩٧	"	الياء والهمزة	١٦٠
"	الخاء والحاء	١١١	"	الهمزة والواو	١٦٦
"	الدال والتاء	١١٢	"	قلب آخر المضاعف ياء	١٧١
"	الصاد والزاى	١١٣	"	الدال والذال	١٧١
"	السين والثاء	١١٤	"	والكاف والغاء	١٧١
			"	الشين والزاى	١٨٥